الفصل الأول

المثالية اليونانية وهيجل [1]

يَدَّعى هيجل ان مذهبه الخاص يضم جوهر الفلسفات السابقة جميعاً ويحتفظ بها ولكن تأثُّر بمؤثرين يفوقان فى الأهمية كلَّ ما عدا هما ، ونقصد بذلك مثالية اليونان والفلسفة النقدية عند (كانْت) .. فالمبادىء الأساسية عند هيجل هى المبادىء الاساسية عند اليونان وعند (كانْت) . وهدفنا فى هذا الفصل وفى الفصل الذى يليه أن نستخلص هذه المبادىء من المفكرين الأوائل . وليس المقصود شرح فلسفة أفلاطون أو أرسطو أو (كانْت) وانما هو تبيان ما كان مضمراً عندهم ، وما اكتشفه هيجل وراء المظهر السطحى لفلسفاتهم .

وسوف نجد أن الأسس الفلسفية الرئيسية عند هيجل هى أسس تاريخية، يقول (والاس) : إن ما ينوى هيجل أن يقدمه ليس مذهباً جديداً خاصاً به وأنما هو الفلسفة الكلية التى تابعت سيرها من عصر إلى عصر والتى إن ضاقت هنا واتسعت هناك ، فقد ظلت واحدة فى جوهرها، إنها واعيةٌ ما تتصف به من اتصال وفخورة بكونها واحدة فى تعاليم أفلاطون وأرسطو .

فما هى اذن الفلسفة الكلية الواحدة؟ لاشك أنها ليست مجرد فلسفة أفلاطون ولا مجرد فلسفة أرسطو أيضاً . إن مذهب كل من هذين الفيلسوفين ليس إلا عَرْضًا خاصاً للفلسفة الكلية فى العصر وفى الظروف التى عاش فيها الفيلسوف . فهى موجودة عند أفلاطون وأرسطو بوصفها الماهية الباطنة لتفكيرهما . إنها هذا الشىء المشترك بينهما، والذى أضاف كل منهما وجهات نظر ، خاصة به ، هذا الجوهر الأساسى سيكون ايضاً جوهر فلسفة هيجل.

---

(١) لخصنا فى هذا العرض شروح وليم ستيس الواردة في كتابه (فلسفة هيجل).

وسنبدأ ، مع ذلك لا بأفلاطون وأرسطو، وانما بالإيليين ، لأننا هنا أيضاً سنجد تحديدات هامة للفلسفة الكلية الواحدة .

المذهب الإيلي وهيجل :

ان الإيليين ، كما هو معروف ، يُنكرون الصيرورة أو التغير كما ينكرون الكثرة . فالواقع الوحيد، فى نظرهم ، هو الوجود، الوجود وحده موجود حقاً، اما الصيرورة فليست موجودة على الاطلاق، إنها وهم والوجود واحد . فالواحد وحده موجود. أما الكثرة فغير موجودة . إنها أيضاً وهم . والعالم الوهمى للصيرورة والكثرة هو عالم الحس ، إنه هذا العالم الذى نعرفه بحواسنا المختلفة . إما الوجود الحقيقى فلا يعرف الا بالعقل ، إنه ليس فى المكان ولا فى الزمان، صحيح أن بارمنيدس قد قال بصورة غير ملائمة إنه كروى الشكل وانه يحتل حيزا من المكان . ولكن هذا القول هو مجرد إحدى القطاعات الطبيعية فى التفكير اليونانى. ويبقى أن القول بأن الوجود ليس موضوعا للحس قول يعبر عن تعاليم الإيليين فى حقيقتها الباطنة .

كل ذلك يدل على تمييز بين الحس والعقل . والقول بأن الواقع يُدرك بالعقل لا بالحواس خاصة من خواص المثالية اليونانية . وهو جزء من الفلسفة الكلية الواحدة .

انه قول هيجلى بمقدار ما هو قول إيلى . صحيح أن هذا الفصل المطلق بين العقل والحس، بين الحقيقة والوهم ، سيرفض من قبل هيجل . فهيجل يرى أن لعالم الحس نفسه حقيقة خاصة به ، غير أن هذا تحوير هيجلى للفلسفة الكلية الواحدة .

ما هو المعنى المقصود بالقول ان عالم الموضوعات الحسية غير واقعى؟ اننا لا نسأل عن المعنى الذى يفهمه الإيليون أنفسهم من توكيدهم ولكننا نسأل عن المعنى الذى نستطيع نحن أن ننسبه إلى هذا التوكيد. فمن الممكن أن يكون الإيليون انفسهم غير واعين بما كان متضمنا فى افكارهم المعتمة، ولكن الافكار

المتضمنة والمضمرة، والتى يجوز ألا تكون مرئية من قبل الإيليين ، هى التى لها القيمة فى نظر هيجل .

الكثرة والحركة اذن ، وعالم الحس الذى يتصف بهما بصورة رئيسية كل ذلك غير حقيقى فماذا يعنى ذلك< هل يعنى أن عالم الحس والكثرة والحركة ليس قائماً ولا وجود له؟

من الواضح أن الاشياء التى ندركها بالحس موجودة . فالإيليون لا يقولون إن العالم الخارجى غير موجود بهذا المعنى، وإنما يقولون إنه غير حقيقى أو غير واقعى. ويمكن ان نلخص ذلك بقولنا : الموجود الحسى ليس واقعياً، وما هو واقعى غير موجود (وجوداً مشخصا) . وعدم فهم هذه التفرقة من الاسباب الرئيسية فى عدم فهم فلسفة هيجل .

افلاطون وهيجل :

ان التأويل التقليدى لفلسفة أفلاطون هو الذى أثر فى فلسفة هيجل، لقد أراد افلاطون أن يرد على مذهب بروتا غوراس، الذى ألغى التمييز بين الواقع وبين الظاهر وألغى بالتالى التفرقة بين الحس وبين العقل، وبدأ بأن يبين أن المعرفة الحسية نفسها لا يعبر عنها الا بتصورات عقلية. فالعبارة (هذا الجسم حار) مؤلفة من معان تستند إلى المقارنة والتصنيف . إن كل لفظة فيها تدل على تصور كلى. وينتج عن ذلك أن كل معرفة إنما تتم بفضل التصورات ، هذه التصورات الموضوعية هى المثل .

صحيح أن افلاطون قال بوجود (المادة) كحامل للصفات ولم يعدّها تصوراً كلياً . ولكننا نرى هنا نقطة ضعف فى فلسفة أفلاطون لأن هذه المادة التى لا تعقل. لا يمكن أن تعرف وبالتالى لا يجوز القول إنها موجودة .

ولا شك أن التصورات الكلية أو الكليات عند أفلاطون ليست ذهنية محضة، أى ليست معانى قائمة فى العقل الفردى، أو العقل الإلهى ، ولكنها قائمة بصورة مستقلة عن العقول .

وهذا هو معنى المثالية عند أفلاطون وأرسطو وهيجل .

الكليات عند أفلاطون هى إذن كليات موضوعية ومعرفتنا بها لا تتم عن طريق الحس وإنما عن طريق العقل .

وبماأن الكليات ليست فى الزمان ولا فى المكان فهى لا توجد وجوداً حسياً أو مشخصا أو فردياً .

والتمييز الأساسى بين الواقع وبين الظاهر فى فلسفة افلاطون هو أن الواقع مستقل فى (وجوده) بينما الظاهر متعلق بالواقع أى بالكليات ، فالكليات إذن هى التى تنتج الموجودات الفردية او الظاهرية ، سواء أكانت ماديةً أم نفسية . وذلك أن الظواهر النفسية هى أيضاً مشخصة وموجودة فى الزمان . اما النفس ذاتها ، بوصفها متميزة عن ظواهر النفس فهى من الكليات لا من الجزئيات.

واذا كان الكلى (الواقعى) هو أساس الجزئى (الموجود الفردى) فإن المشكلة التى تبرز هنا هى : كيف ينشأ الجزئى عن الكلى؟ إن مذهب أفلاطون غامض فى معالجة هذه المسألة، فالجزئيات عنده «نُسَخٌ» عن الكليات أو المُثُل.

بقى أن نقول ان تأويل مثالية أفلاطون على أساس القول بأن الكليات موجودة فى عالم خاص بها هو عالم المُثُل ، تأويل يجعل الأفلاطونية تتناقض مع الفلسفة الكلية الواحدة. إنه تأويل أرسطو لمذهب افلاطون ، هذا التأويل الذى يعنى ان المثل الافلاطونية «موجودة» فى عالمها كما توجد الجزئيات ، ولكن روح المذهب الافلاطونى يتضمن أن الكليات واقعية فحسب، وليس لها أىّ وجود فردى.

أرسطو وهيجل :

الاشياء عند أرسطو تتألف من مادة وصورة ، المادة عنده تقابل «المادة» عند أفلاطون والصورة تقابل المثال ، ولكن الصورة عند أرسطو كلى، لا يوجد فى

عالم خاص به وإنما يوجد «فى الأشياء نفسها» .

الصورة عند أرسطو لا توجد مستقلة لانها محمولات ، وكذلك المادة فهى لا توجد مستقلة عن محمولاتها ، الموجود الفعلي هو الشيء بمحمولاته، ويتفق أرسطو مع الفلسفة الكلية بالقول إن الكلى هو الواقعى ، ولكنه غير موجود وجوداً فردياً ، وهنا نسأل :

ما نمط وجود الكليات ؟ إنها ، عند أرسطو تسبق وجود الجزئيات سبقاً منطقياً لا سبقاً زمنياً ، فلا وجود للكلى قبل «الأشياء» لأنه لا يوجد الا فى «الأشياء» لأن لا يوجد الا فى «الأشياء» .

وهذه نتيجة هامة ستأخذ شكلاً أوضح عند هيجل ، وخلاصها أن العالم ينتج عن الكليات لا كما ينتج المسبب عن السبب فى الزمان، وإنما كما تنتج النتيجة عن المقدمات فى القياس .

وهذا يعنى أن الكلى مستقل استقلالاً منطقياً عن أى شيء أخر ، ووجوده وجود منطقى ، أما وجود الكلى فى «الأشياء» فيتعلق بغيره أى بالمادة .

ومسألة أخرى عند أرسطو أثرت فى فلسفة هيجل هى التمييز بين الوجود بالقوة والوجود بالفعل . هذا التمييز سيظهر عند هيجل على صورة التمييز بين الوجود فى ذاته ، والوجود فى ذاته ولذاته . فالجديد عندها ليس إبداعاً من عدم، ولكنه تطور يظهر ما كان مضمرا أى ما كان موجودا بالقوة ، والفكر هو الذى يرى المضمر، أى يرى الشجرة فى الثمرة ، فالشجرة موجودة (بالقوة) فى الثمرة (بالنسبة الينا) ولكنها لا تصبح موجودة بالفعل الا عندما تتحقق ، فالوجود بالقوة وجود فى ذاته ، والوجود بالفعل وجود لذاته .

ولكن هيجل يختلف عن أفلاطون وأرسطو فى أنه يرفض ثنائية الصورة والمادة ، المادة عنده ليست سوى تجريد ولهذا فهو يلقيها فالمضمر عند هيجل ليس المادة ، كما أن الصريح ليس الصورة .

ومسألة أخيرة عند أرسطو أثرت فى هيجل هى مذهب المطلق أو الله، فالله عند أرسطو هو الصورة المطلقة، إنه صورة الصور (أو فكر الفكر) ، إنه لا يعقل المادة ولكنه يعقل ذاته، وكذلك الأمر عند هيجل .

والخلاصة أن المثالية اليونانية ، بوصفها معبرة عن الفلسفة الكلية الواحدة تقرر أن الكليات لا توجد وجودا فرديا وإنما هى واقعية وهى مستقلة منطقيا عن الجزئيات إنها العلة العقلية للجزئيات المشخصة .

هكذا ترى أن فلسفة هيجل ليست فلسفة ذاتية ، وإنما هى فلسفة كلية تعترف على الحقائق الماضية وتمتصها فى ذاتها ، لتخطو خطوات جديدة فى التعبير عن الفلسفة الواحدة .